الآليات اللسانية في الخطاب التفسيري -البحر المحيط- أنموذجا-

أ.د زهرة سعدالله

جامعة وهران

تمهيد

لم يحض نص في تاريخ الإنسانية بالأهمية التي حضيها الخطاب القرآني المعجز بأسلوبه وقوة بيانه، النص الذي تحدى أصحاب الفصاحة والبلاغة والبيان من أهل اللسان نفسه فعكفوا على قراءته وشرحه وتفسيره وتأويل ما أبهم فهمه فيه، فكان إعجازه دافعا قويا للعرب ممتثلين لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حثهم في أكثر من مرة على طلب العلم، لقراءة القرآن وفهمه، وحفظه وتعليمه للناس؛ فقد قيل "يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ فقال(العلم بالله عز وجل)، فقيل:أي العلم تريد؟ قال صلى الله عليه وسلم (العلم بالله سبحانه)، فقيل له: نسأل عن العمل وتجيب عن العلم؟ فقال صلى الله عليه وسلم (إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله)"[1] .

فقعدوا للعربية واستنبطوا خصائصها من خلال دراسات تعد بحق كنوزا معرفية أنارت طريق الكثير من الباحثين العرب والمسلمين عامة، وساعدتهم على الحفاظ على العربية وعلى عقيدتهم من جهة أخرى، وكان القرآن حقلا خصبا لهذه الدراسات؛ لأنه نص سماوي ونص دين وتشريع، نص معجز فيه من الخصائص الأسلوبية ما يهيئه لاختلاف الفهم وتعدد التأويل؛ فصار إذ ذاك حجة للمسلمين مدى العصور، وحصنا للعربية يقويها ويحميها.

وتبقى الذات المتلقية لهذا الخطاب السماوي مركزة في قراءتها إما على اللغة الناقلة للتشريع الإسلامي المحيطة بمواطن إعجازه، أو مركزة على النص وما يحمله من معاني بعيدا عن كل الآليات المساعدة على الفهم، لأنها- أي الذات- تقرأ ما تحب أن تقرأه وتفهم من النص ما تريد فهمه بدوافع إيديولوجية مسبقة وموجهة للقراءة؛ وهي إيديولوجيات مذهبية تتخذ من الخطاب الديني منبرا ليعبّر صاحبه عن صوته المتميز الحامل للواء فرقة أو مذهب والدعوة إليه والإقناع به 2 ، وهو من بدع التفسير ، كما سماها الزمخشري، ظهرت منذ ظهرت العناية بالخطاب القرآني، واستفحلت بعد ذلك لجهل المتلقي بمعاني القرآن ومقاصده وبقضايا لغته، ومرد ذلك عند الكثيرين أن الخطاب التفسيري ظهر مصاحبا للرسالة المحمدية مع الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي يعد أول مفسر لكتاب الله، وصحابته، وتداوله الناس عن طريق المشافهة والسماع، ولم يدون إلا في القرن الثاني للهجرة؛ مما سنح اليوم لبعض المضللين من أهل الاستشراق التشكيك في الروايات المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم، يقول جولد تسيهر:"لا يوجد تفسير مأثور موحد للقرآن، فمن ناحية تروى عن صحابة مختلفين وجوه مختلفة، وكثيرا متعارضة في تفسير مواضع من القرآن، ومن ناحية أخرى تنسب إلى صحابي واحد بعينه أقوال مختلفة في دلالة بعض المفردات أو سائر تراكيب الجملة، وعلى هذا يمكن عدّ وجوه من التفسير مختلفة بعضها مع بعض، ومتعارضة بعضها مع بعض تفسيرا بالعلم، مع التسوية بينها جميعا في ذلك الحق"3 .

ولا ردّ لهذا القول سوى ما قاله السيوطي من أن القائل بالاختلاف في كتب التفاسير يعاني من قصور في الفهم لما جاء مبثوثا في هذه الكتب، والحق

أن ما وصلنا من مؤلفات يعد أعظم حجة على كذب وافتراء المستشرقين:من هذه الكتب تفسير سفيان بن عينة، وتفسير ابن عباس وغيرهم.

لذلك، فالخطاب الديني المعاصر إن لم يكن مؤسسا على مرجعيات معرفية دقيقة بالخطاب الديني كما وصلنا من علمائنا باختلاف مناهجهم ومذاهبهم، يستدل منه ويستنير بنور العلوم المختلفة التي حوتها مؤلفاتهم، لا يمكن الأخذ به؛ إذ لا يستطاع لمن جهل فنون العربية وخصائصها كما تواصل بها العرب في العهود السابقة أن يقول شيئا في آية من آيات القرآن الكريم ولا حتى في حرف من حروفه.

وعليه من واجبنا أن نسلط الضوء على هذه المصنفات ونعيد قراءتها بآليات لغوية توفرها لنا النظريات اللسانية الحديثة، وهو ما سنحاول إيضاحه من خلال الخطاب التفسيري عند أبي حيان النحوي الأندلسي.

الخطاب التفسيري اللغوي:

التفسير الإبانة والإيضاح والفهم، يقول الزركشي"علم يفهم به كتاب الله المنزّل على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"4، وغير بعيد عن هذا التعريف وبكثير من التوضيح يقول أبو حيان في تعريفه لعلم التفسير"علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك...."5،مما يؤكد على أن هذا الفهم وهذا الإيضاح لا يؤتاه الرجل إلا إذا أعمل العقل واستعان بعلوم اللغة وآدابها كما بينها أبو حيان في تخريجه لهذا التعريف يقول6:

1- فقولنا علم هو جنس يشمل سائر العلوم.

2-وقولنا يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن هذا هو علم القراءات.

3-وقولنا ومدلولاتها أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم.

4-وقولنا وأحكامها الإفرادية والتركيبية، هذا يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة وما دلالته عليه بالمجاز، فإنّ التركيب قد يقتضي بالظاهر شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر وهو المجاز.

5-وقولنا وتتمات لذلك هو معرفة النسخ وسبب النزول وقصة توضح ما انبهم في القرآن، ونحو ذلك.

معنى ذلك أن علماءنا الذين درسوا كتاب الله كانوا على قدر كبير من الذكاء والفطنة وإحاطتهم بكل هذه العلوم جعل خطابهم الديني يرقى إلى مستوى الخطاب القرآني؛ فالمفسر إذن يجب أن يكون7:

1-عالما بعلوم المعاني والبيان والبديع، فلا يمر بصورة من هذه الصور في الآيات القرآنية إلا رصدها حتى يتمكن من حمل المعنى على ظاهر الآية أو باطنها.

2-ضليعا في علمي النحو والصرف، ليستطيع الإفصاح عن وظيفة المفردة داخل التركيب القرآني، ويتوصل بذلك إلى المعنى المراد من الآية.

3-ينبغي للمفسر أيضا أن يكون على دراية كبيرة بعلم الاشتقاق فيرجع اللفظة إلى أصولها، ليعرف معناها، فإن أخطأ في معرفة الأصل أخطأ في المعنى.

4-وأن يكون أيضا على دراية بعلم الحديث لتعيين المبهم وتبيين المجمل وسبب النزول والنسخ.

5-عالما بأصول الفقه حتى يتمكن من معرفة الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد ودلالة الأمر والنهي وما أشبه هذا.

فالتفسير اللغوي من هذا المنطلق ليس تفسيرا نقليا محشوا بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة؛ وإنما هو تفسير يتخذ من الخطاب القرآني مادته، وهو أيضا قواعد اللغة تؤكدها الآية، وربما عدلت عنها، وإن كان فيها من توسع مفض أحيانا إلى استطراد وشرود عن النص، فإنما يكون في تفسير بعض القواعد أوالتبسط في بعض مسائل الخلاف بين النحاة8، فأصحاب هذا التفسير اعتمدوا في تحليلهم للنص القرآني على جهود الأولين وعلى الاجتهاد والقياس، والاستنباط الدقيق للأحكام؛ مسخرين لذلك علوم اللغة النحوية كما ذكرنا، والصرفية والبلاغية، فالنص القرآني عندهم ليس مجرد نص ديني فحسب؛ وإنما هو كذلك نص أدبي معجز9 ينبغي التعرف على قيمته الأدبية بالوصول إلى إعجازه وفق تلك العلوم التي سبق ذكرها، والتي كثر الاجتهاد والتأليف فيها و بفضلها تمكنوا من إظهار الدلالات الخفية للآيات القرآنية، مع حذرهم الشديد على أن يكون المعنى المجازي مطابقا لظاهر الآية، وغير مخالف للشرع ، وفي هذا يقول صاحب البرهان".....من أحاط بظاهر التفسير- وهو معنى الألفاظ في اللغة- لم يكف ذلك في فهم حقائق المعاني، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب، فظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة التي لابد منها للفهم، وما لابد من استماع كثير، لأن القرآن نزل بلغة العرب، فما كان الرجوع فيه إلى لغتهم، فلابد من معرفتها أو معرفة أكثرها...."10.

وقد اجتمعت هذه الخصال كلها في أبي حيان الذي كان لتكوينه الديني النحوي وفي إطاره الزمني والعلمي من الحوافز ما أفرز"البحر المحيط"

تفسيرا لغويا ضافيا متميزا11،وسيتضح ذلك جليا من خلال حديثنا عن المنهجية اللغوية التي ارتضاها في تعامله مع البنية النصية للخطاب القرآني.

أبو حيان وكتابه البحر المحيط:

هو أثير الدين أبو حيان النحوي الجياني الغرناطي الأندلسي ولد بجيان في العشر الأخير من شوال سنة 664هـ/ 1256م ،عالم ثبت فيما ينقل، محرر لما يقول عارف باللغة، ضابط لألفاظها وأما النحو فهو إمام ناس كلهم فيه لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في حياته، وله اليد الطولى في التفسير والحديث، والشروط و الفروع، وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم خصوصا المغاربة، وتقييد أسمائهم على ما يتلفظون به من إمالة وترقيق وتفخيم، لأنهم يجاورون بلاد الإفرنج وأسماؤهم قريبة من لغاتهم وألقابهم12، هكذا وصفه العلماء؛ فقد كان نحويا ولغويا ومفسرا ومحدثا ومقرئا ومؤرخا وأديبا، ملما بالقراءات صحيحها وشاذها، بالإضافة إلى عفة نفسه، وحسن دينه.

أما عن عقيدته؛ فقد كان في أول حياته مالكيا ثم تمذهب بالظاهر وفي الأخير اعتنق المذهب الشافعي؛ وهذا أمر راجع إلى كثرة ترحاله، إذ منذ677هـ قرر رحيله إلى بلاد المغرب فزار كل من تبسة وبجاية وتونس، بعدها زار الإسكندرية والقاهرة والشام والعراق، وتقلد مناصب كثيرة، ولكن انتهى به الأمر بالمكوث في مصر أين ألف مجموعة من الكتب في علوم مختلفة في الفقه والقراءات واللغة والنحو، ومؤلف وحيد وفريد في علم التفسير، وذلك إلى غاية وفاته في الثامن والعشرين من صفر سنة 754هـ الموافق 11 تموز1345م .

وعلى الرغم من اعتناقه لأكثر من مذهب واحد، لم يكن أبو حيان- رحمه الله- حاطب ليل بل كان كغيره من المفسرين يجتهد في استنباط الأحكام والكشف عن معاني ألفاظ القرآن الكريم مسخرا لذلك علوم اللغة من دراسات صوتية وصرفية ونحوية وبلاغية، وإن كان الجانب الغالب في تفسيره لآي الذكر الحكيم هو الجانب التركيبي، فأبو حيان نحوي قبل أن يكون فقيها، عالما بعلوم الشريعة ومفسرا لكتاب الله، والأمر ذاته نجده عند جل المفسرين اللغويين أمثال الزمخشري الذي يعدّ تفسيره مصدرا في علمي البديع والبيان؛ ولكن من خلال تصفحنا لآراء أبي حيان النحوية وجدناه بصريا وليس ببصري، كوفيا وليس بكوفي، وبغداديا وليس ببغدادي، وظاهريا وليس بظاهري، والواضح أنه متأثر بكل هذه المذاهب، وإن كان المذهب البصري هو المذهب الغالب على آرائه، ودليل ذلك إشادته بكتاب سيبويه وبآراء البصريين في صفحات كتابه 13 .

ومع هذا لم يكن أبو حيان مجرد جامع ناقل بل أخد كلا بدلائله فنظر في تلك الآراء بعين البصير المتأمل حتى قال قولته المشهورة:" ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ولا غيرهم ممن خالفهم، فكم من حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون، وكم من حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون، إنما يعرف ذلك من له استبحار في علم العربية"14.

الأمر الذي جعلنا نؤكد اعتداله ووسطيته في أخذه بآراء من سبقه من النحاة وغيرهم، خاصة وأن تأليفه للبحر المحيط كان في أواخر حياته أي سنة 710هـ وهو يوضح ذلك في رسالته للصفدي يقول:"... ومازال يختلج في

ذكري، ويعتلج في فكري، أني إذا بلغت الأمد الذي يتغضذ فيه الأديم، ويتنغص برؤيتي النديم، وهو العقد الذي يحل عرى الشباب، المقول فيه إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب، ألوذ بجناب الرحمان، وأقتصر على النظر في تفسير القرآن، فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ ذلك العقد، وبلغني ما كنت أروم من ذلك القصد، وذلك بإنتصابي مدرسا في علم التفسير في قبة السلطان الملك المنصور قدس الله مرقده.....وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمائة (710هـ)، وهي أواخر سنة سبع وخمسين من عمري فعكفت على تصنيف هذا الكتاب"15 ،الذي سماه الكتاب الكبير لما حواه من آراء فقهية ونحوية ولغوية وتاريخية، ويقع هذا الكتاب في ثمان مجلدات كبار طبع بمصر سنة 1328هـ بمطبعة السعادة على نفقة سلطان المغرب الأقصى عبد الحفيظ بن السلطان سيدي محمد، وطبع بهامشه تفسيران جليلان : أحدهما النهر الماد لأبي حيان لخص فيه البحر المحيط، وثانيهما الدر اللقيط من البحر المحيط لتلميذ أبي حيان ابن مكتوم النحوي، وقد قام بتحقيقه أربعة من شيوخ الأزهر، والطبعة في تسع مجلدات، حققت سنة1422هـ/ 2001م.

منهج أبي حيان في التفسير:

إن الدرس اللغوي عند أبي حيان كان مؤسسا باعتماده على مجموعة من المصادر في التفسير والحديث والفقه والتاريخ، وكان أهم هذه المصادر: كتاب سيبويه في النحو، وتفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري ، وكتاب التحرير والتحبير لابن النقيب، وتفسير المحرر الوجيز لأبي محمد بن عطية، فالتفسير عنده سار على منهج واحد طبقه في كامل القرآن الكريم؛ إذ لم يترك شاردة ولا واردة في كتاب الله، إلا وقف عندها يشرحها ويجلي غموضها، ويذكر الآراء التي

جاءت في تفسيرها، يناقشها، يردها أو يقبلها بالتعليل اللغوي الذي يتماشى ورسم القرآن الكريم، ويتماشى ومعنى الآية الذي لا يجب أن يختلف فيه اثنان، وقد حدد في مقدمة تفسيره منهجه في الشرح تحديدا يدل على منطلقه اللغوي المعجمي فالنحوي بقوله:" وترتيبي في هذا الكتاب أني أبتدئ:

أولا: بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية.

1. ذاكرا سبب نزولها إذا كان لها سبب ونسخها، ومناسبتها وارتباطها بما قبلها.

2- حاشدا فيها القراءات شاذها ومستعملها.

3 – ذاكرا توجيه ذلك في علم العربية.

4- ناقلا أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها.

5-متكلما على جليها وخفيها، بحيث أنني لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها.

6-مبديا ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب من بديع وبيان.

7- ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعليق باللفظ القرآني، محيلا على الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقررها والاستدلال عليها على كتب النحو، وربما أذكر الدلائل إذا كان الحكم غريبا أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئا بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ مرجحا لذلك ما يصدر عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه.

8-منكبا في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها، مبينا أنها مما يجب أن يعدل عنه، وأنه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة في شعر

الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة والتراكيب القلقة والمجازات المعقدة.

9- ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها إفرادا وتركيبا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصا، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني ملخصا جملها في أحسن تلخيص وقد ينجز معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير، وصار ذلك نموذجا لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن....."[16]

وحتى يتسنى لأبي حيان أن يحيط بكل هذه الجوانب اللغوية، والنحوية والفقهية والتاريخية في تحليل اللفظ القرآني، قام بتجزئة السورة الواحدة إلى مجموعات كل مجموعة تتكون من عدد قليل من الآيات يتولى شرحها مجموعة فمجموعة وآية فآية، وقد كان حريصا كلما خرج من آية إلى أخرى، على أن يوجد الرابط المعنوي بينهما حتى يتأكد عند القارئ ما بين آي القرآن من التماسك والتداعي متجاهلا ما أثير في ترتيب آي القرآن من جدال، ومتوهما أن الآيات القرآنية قد تسلسلت في نزولها مكانيا وزمانيا يشرّع لتلك اللحمة التي يقيمها بينها وقد استعمل لذلك عبارة تتردد بكثرة في تفسيره وهي قوله".....ومناسبة هذه الآية لما قبلها.."[17]، ثم يفصّل الحديث عن كل لفظ في الآية كما أوضح ذلك في كلامه عن منهجه في التفسير، من ذلك تفسيره للفظة القتل في قوله تعالى{ **فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُم فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُم ذَٰلِكُم خَيْرٌ لَّكُم**} البقرة/ 54؛ حيث يستعرض أبو حيان معاني القتل في الاستعمال اللغوي، وهي معان متفق حولها، وإن كان هناك ثمة خلاف بين المفسرين فهو متعلق باستعمال الفعل في هذا الحقل الدلالي المعجز، فيذكر أبو حيان تخريجات مختلفة للمفسرين، بعدها ينتقل إلى اختلاف القراءات وتخريج تلك القراءات، ولا يتوقف عند العرض والوصف، وإنما يختار من بين تلك

الأقوال والقراءات ما يناسب سياق الآية، وسنحاول الإلمام بالمراحل التي اتبعها أبو حيان في تعامله مع فعل القتل في الآية الكريمة :

❋ يقول أبو حيان في المعنى اللغوي للقتل" القتل إزهاق الروح بفعل أحد من طعن أو ضرب أو ذبح أو خنق أو ما شابه ذلك، وأما إذا كان من غير فعل فهو موت هلاك"18 ؛ وهو ذات المعنى الذي وجدناه في المعاجم العربية، ففي التهذيب (قتله) إذا أماته بضرب أو سم أو علة فهو قاتل وذاك مقتول والنية قاتلة19 .

❋ ينتقل بعد ذلك إلى المعنى الاصطلاحي للقتل يقول" ذهب ابن إسحاق إلى أن القتل في الآية من الاستسلام للقتل وسمي كذلك على سبيل المجاز فتخلص في قوله فاقتلوا ثلاثة أقوال: الأول بقتل أنفسهم، الثاني الاستسلام للقتل، والثالث التذليل للأهواء، والأول هو الظاهر وهو الذي نقله أكثر الناس"20.

❋ يخلص في الأخير إلى ما ذهب إليه بعضهم في قراءة الفعل "فأقيلوا" وأيضا " فاقتالوا" بدل" أقتلوا" وفي تخريجه للقراءتين يؤكد على عدم صحتهما وعدم موافقتهما لسياق الآية؛ فمعنى " أقيلوا" وهي قراءة قتادة وابن عطية والتبريزي، وهو أمر من الإقالة؛ وكأن المعنى أن أنفسكم قد تورطت في عذاب الله بهذا الفعل العظيم الذي تعاطيتموه من عبادة العجل، وقد هلكت فأقيلوها بالتوبة والتزام الطاعة21 ؛ وأما معنى "اقتالوا" وهي قراءة قتادة، هو افتعل بمعنى استفعل أي فاستقيلوها، والمشهور استقال لا اقتال والتصريف يضعف أن يكون من الاستقالة، فهذه اللفظة لا شك مسموعة بدليل نقل قتادة لها22 .

وبذات الدقة يتعرض للفظة" الرحمن" من سورة الفاتحة يقول" فعلان من الرحمة، وأصل بنائه من اللازم من المبالغة وشذ من المتعدي وأل فيه للغلبة، كهي في الصّعق فهو وصف لم يستعمل في غير الله، كما لم يستعمل اسمه في غيره وسمعنا مناقبه قالوا رحمن الدنيا والآخرة، ووصف غير الله به تعنت الملحدين، وإذ قلت الله الرحمن ففي صرفه قولان ليسند أحدهما إلى أصل عام، وهو أن أصل الاسم الصرف، والآخر إلى أصل خاص وهو أن أصل فعلان المنع لغلبته فيه، ومن غريب ما قيل أنه أعجمي بالخاء المعجمة فعرب بالحاء قاله ثعلب"23 .

وهكذا فإن الآلية المنهجية التي اعتمدها أبو حيان في تفسير اللفظ القرآني تتعدى حدود البناء النصي إلى إظهار دلالة الخطاب من خلال اللفظ، حيث أن التلازم والتلاحم الموجودان بين اللفظ والسياق القرآني دفع به إلى التعامل معه وفقا لهذا التلازم؛ لذلك كله يصح لنا أن نقول أن صفة اللغوي والمفسر والقارئ اجتمعت في شخص أبي حيان، الذي أظهر فطنة وذكاء كبيرين في الطريقة التي عول عليها في التعامل مع العلامة اللغوية، والتي حيك بها ذلك النسيج اللغوي الرائع.

ويبقى المستوى الغالب في تفسير أبي حيان هو المستوى التركيبي، إلى درجة أن معظم الباحثين يصفونه ضمن النحاة وكتابه يقولون بأنه كتاب في إعراب القرآن، وليس بمقدورنا في هذه الإطلالة البسيطة أن نذكر كل آراءه النحوية المبثوثة في البحر المحيط وسنكتفي بذكر بعضها؛ منها ما ذكره عن تحقيق الانسجام بين الجمل والآيات دونما حاجة إلى رابط في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فمثلا، عندما ذكر الله سبحانه وتعالى صفات المؤمنين وجزاءهم أعقبه بذكر صفات الكافرين وجزاءهم دون أن يستعمل

الرابط بين الآيات مع أن المعنى مختلف في قوله تعالى{ **أولَئِك على هُدًى من ربِّهم وأولَئِك هُم المُفلِحُون* إنَّ الذين كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيهِم أأَنذَرتَهُم أَم لَم تُنذِرْهُم لاَ يُؤْمِنُون**} البقرة/ 05–06 ، فعدم وجود الرابط بين الآيتين لا يخل بالمعنى إذ المتلقي كان يترقب حديث القرآن عن الكافرين، لكنه لم يتوقع الحديث عن الفئة الثالثة وهي فئة المنافقين الذين جاء ذكرهم في ثلاث عشرة آية، لذلك جيء بحرف العطف للربط بين الآيات السابقة وما تلاها، يعلق أبو حيان على هذا الأسلوب بقوله:" لما ذكر من الكتاب هدى لهم وهم المتقون الذين جمعوا أوصاف الإيمان من خلوص الاعتقاد، وأوصاف الإسلام من الأفعال البدنية والمالية، ولما ذكر ما آل أمرهم إليه في الدنيا من الهدى وفي الآخرة من الفلاح، ثم أعقب ذلك بمقابلهم من الكفار الذين ختم عليهم بعد الإيمان، وختم لهم بما يؤولون إليه من العذاب في النيران، وبقي قسم ثالث أظهروا الإسلام مقالا وأبطنوا الكفر اعتقادا، وهم المنافقون أخد يذكر شيئا من أحوالهم و(مِنَ) في قوله تعالى{ **وَمِنَ النَّاسِ** } للتبعيض"24.

وفي إعراب شبه الجملة { **ومن الناس** } خبرا مقدما لقوله{ **مَنْ يَقُولُ** } يقول أبو حيان أنه من باب التفصيل المعنوي لأنه تقدم ذكر المؤمنين ثم ذكر الكافرين، ثم–عقب بذكر المنافقين– فصار نظير التفصيل اللفظي في قوله { **ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ**} البقرة/ 207، فهو في قوة تفصيل الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق25.

وفي موضع آخر من قوله عز وجل { **واتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بالحَقِّ إذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر قال لأَقْتُلَنَّك قال إنَّمَا**

يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْ الْمُتَّقِين ۞ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إليك لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ ربَّ العَالَمِين ۞ } المائدة/ 27–28؛ فقد بدأ المقتول خطابه مع أخيه القاتل بالجملة الاسمية في قوله{ **وما أنا بباسط**} مبالغة في تأكيد نفي القتل عن نفسه26، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري بقوله:" فإن قلت: لم جاء الشرط بلفظ الفعل والجزاء بلفظ اسم الفاعل، وهو قوله { **لئن بسطت** } { **ما أنا بباسط** } قلت ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع"27 .

إلا أن أبا حيان يذهب بتفسير الآية إلى أمر آخر هو أن قوله { **ما أنا بباسط** } ليس جزاء، بل هو جواب للقسم المحذوف قبل اللام في { **لئن** } المؤذنة بالقسم، والموطّئة للجواب لا للشرط، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، ولو كان جوابا للشرط لكان بالفاء فإنه إذا كان جواب الشرط منفيا بما فلا بد من الفاء28 ، على ما اتفق عليه علماء النحو29؛ مما يجعلنا نميل لرأي أبي حيان في كون الجملة جوابا لقسم محذوف حلّ محلّ جواب الشرط.

ومن أكثر فنون البلاغة انتشارا في القرآن الكريم ظاهرة الالتفات، من ذلك قوله عز وجل { **وإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءٍ مَسَّتْهُم إِذَا لَهُم مَكْرٌ فِي آيَاتِنا قُلِ اللهُ أَسرعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُون مَا تَمكُرُون** } يقول أبو حيان:"....وقرأ الحسن وقتادة ومجاهد والأعرج ورويت عن نافع (يمكرون) على الغيبة جريا على ما سبق، وقرأ أبو رجاء وشيبة وأبو جعفر وابن أبي اسحاق وعيسى وطلحة والأعمش والجحدري وأيوب بن المتوكل وابن محيصن وشبل وأهل مكة والسبعة بالتاء على الخطاب، مبالغة لهم في الإعلام

بحال مكرهم والتفاتا لقوله(قل الله) أي: قل لهم، فناسب الخطاب، وفي قوله(إن رسلنا) التفات أيضا، إذ لم يأت إن رسله، وقال أيوب بن المتوكل في مصحف أبيّ (أيّها الناس إنّ الله أسرع مكرا وإنّ رسله لديكم يكتبون ما تمكرون)، وينبغي أن يحمل هذا على التفسير لأنه مخالف لما أجمع عليه المسلمون من سواد المصحف، والمحفوظ عن أبيّ القراءة والإقراء بسواد المصحف"30.

فلو أخذنا بالقراءة الأولى (يمكرون) يكون الضمير عائد على الناس مما ينفي وجود الالتفات، غير أن الجاهل بتفانين اللغة العربية قد يقع في اللبس بين كون الضمير في (يمكرون) عائد على الناس؛ بحيث يرتبط السابق باللاحق، أو بقوله(رسلنا)، وهذا خطأ فادح قد يقع فيه من كان جاهلا بأسلوب القرآن الكريم وإن كان من الناحية التركيبية صحيح، أما القراءة الثانية والتي اختارها أبو حيان(تمكرون) فيها من أوجه الإعجاز ما يدل على تناسق الخطاب القرآني المانع من شك أو ريب؛ إذ الانتقال من الغيبة إلى الخطاب يحقق الصلة الموجودة في فعل الأمر (قل) الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم، والناس هم بمثابة المتلقي لهذا الخطاب ، فكان الأرجح مخاطبتهم بصفة المخاطب لا الغائب، ثم أن الالتفات الموجود في (إنّ رسلنا) حيث أسند ضمير المتكلم إلى (رسل) بدل ضمير الغائب نوع آخر من الانسجام المتماشي والبنية العامة للخطاب، يقول أبو حيان عن هذا الالتفات: أن جملة (إن رسلنا) من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، والضمير في (رسلنا) راجع على الله عز وجل31 .

وقد وقف أبو حيان في أكثر من مرة عند مسألة جد هامة من شأنها أن تحقق انسجام الخطاب القرآني المتمثلة في تسلسل الأحداث وارتباطها مع بعضها البعض؛ وقد اهتم المفسرون

بترتيب الخطاب، لرفع اللبس عن المعنى وتأويل ما أشكل في النص القرآني من ذلك قوله تعالى في الآية189 من سورة البقرة { **يَسْأَلُونَكَ عنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ والحج** } يقول أبو حيان:"....نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي صلى الله عليه وسلم عن الهلال، وما فائدة محاقه وكماله، ومخالفته للشمس، قال ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم، وروي أن من سأل هو معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ثم لا يزال ينتقص حتى يعود كما بدأ لا يكون على حالة واحدة؟ فنزلت، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وهو أنّ ما قبلها من الآيات نزلت في الصيام، وأنّ صيام رمضان مقرون برؤية الهلال، وكذلك الإفطار في سؤال، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم" صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته".....".32 .

المستفاد من كلام أبي حيان، أنه نظر أولا إلى سياق النص وقبل أن يدلو بدلوه في معانيه ذكر سبب نزول الآية، فالمعرفة السياقية تعتبر خطوة هامة في كل عمل تأويلي؛ إذ بقدر ما يعرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق بقدر ما يحتمل أن يكون قادرا على التنبؤ بما يحتمل أن يقال"33 .

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه الالتفاتة البسيطة لما تضمنه تفسير البحر المحيط، أن القدرة على كشف أسرار هذا الخطاب المعجز تتفاوت بتفاوت القدرات العلمية لدى البشر؛ إذ أن قدرتهم على التعامل مع الخطاب القرآني فهما وإدراكا واستنباطا ليست على مستوى واحد، لذلك فالاختلاف في الوصول إلى خبايا هذا الخطاب واردة في كتب التفسير والفقه، وتعاملنا مع تفسير البحر المحيط لا يجعله خارج إطار النسبية العلمية، فالخائض في غمار الخطاب القرآني، عليه أن يكون متسلحا بمختلف العلوم،

كما سبق وأن ذكرنا، يقظا ذكيا مالكا لناصية اللغة العربية وهي فعلا، الصفات التي تميز بها علماؤنا الذين انطلقوا من اتجاهات شتى في بيان دلالة النص القرآني بأبعاده المختلفة، النصية والإرشادية والبلاغية والإعجازية، واللغوية النظامية، والفقهية الشرعية، والمجمل والمفصل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والقصص والعبر والعظات ونحو ذلك.

أما التفسير اللغوي عند أبي حيان فيقوم أساسا على افتراضات سياقية تتناسب مع دلالة الآية والقضايا المتعلقة بموضوع الخطاب الذي يعد السيد الموجه للمنهج التأويلي عند أبي حيان، ولم نلمس قط في قراءتنا للبحر المحيط تعصب صاحبه لأي مذهب أو مدرسة سوى السياق اللغوي للنص القرآني؛ فالقيمة العلمية التي لمسناها في هذا الخطاب التفسيري والمعتمدة أساسا على التحليل اللغوي، من شأنه أن يساهم في تطوير البحث العلمي وبالتالي التأسيس لمدرسة لسانية عربية، خاصة ما تعلق بلسانيات الخطاب؛ لأننا في تتبعنا للمراحل التي اتبعها هذا الرجل في تفسيره آي الذكر الحكيم وجدناه يستعين كلية على أدوات إجرائية توفرها له علوم اللغة في تحليل كل مستوى من مستويات الدرس اللساني، مما مكنه من البرهنة على ترابط أجزاء الخطاب القرآني وعلى وحدة نصه بأسلوب فريد ومعجز.

الهوامش:

1- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ج1،ص17، بدون تاريخ.

2-قضايا اللغة في كتب التفسير:المنهج-التأويل-الإعجاز،د.الهادي الجطلاوي ص132، دار محمد علي الحامي، تونس،ط1/ 1998.

3-من مناهج التفسير الشحات السيد زغلول نقلا عن مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهرص104.

4-البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط1957، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ج2،ص147.

5-تفسير البحر المحيط لأبي حيان النحوي الأندلسي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان،1978،ط2،ج1،ص13-14.

6-المصدر نفسه.

7-المصدر نفسه.

8-قضايا اللغة في كتب التفسير للجطلاوي ص49.

9-ينظر الزمن في القرآن الكريم للدكتور عبد الكريم بكري ص4.

10- البرهان في علوم القرآن للزركشي ج2،ص155.

11-قضايا اللغة في كتب التفسير للجطلاوي ص49.

12-أبو حيان الأندلسي، موقفه من القراءات القرآنية ومنهجه في تخريجها وتوظيفها من خلال تفسيره البحر المحيط،أ. ربيعة بقيلاني ص3 ، بحث مقدم لنيل ديبلوم دراسات عليا 1998/ 1999، جامعة شعيب الدكالي- المغرب- مخطوط.

13-البحر المحيط ج1ص3.

14-مقدمة تحقيق البحر المحيط ج1ص62.

15-البحر المحيط ج1ص 2-3.

16-المصدر نفسه ج1 ص13-14.

17-قضايا اللغة في كتب التفسيرص71.

18-البحر المحيط ج1 ص367.

19-معجم لسان العرب لابن منظورص547- معجم تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان م6،ص 75.

20-البحر المحيط ج1 ص367.

21-المصدر نفسه ص368.

22-المصدر نفسه.

23-المصدر نفسه ج1 ص125.

24-المصدر نفسه ج1 ص181،182.

25-المصدر نفسه.

26-تلوين الخطاب في القرآن الكريم .

27-تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل في عيون الأقاويل في وجوه التأويل،لأبي القاسم جار الله الزمخشري، دار الفكر، ط1، 1982/ ج1،ص624.

28-البحر المحيط ج3 ص477.

29-ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لابن عقيل الهمداني، تحقيق حنا الفاخوري ط1/ 1989،ص دار الجيل بيروت، ج2/ ًص375.

30-البحر المحيط ج5،ص140.

31-المصدر نفسه ج5، ص141.

32-المصدر نفسه ج2، ص69.